أمي

بقلم
جمال
الغيطانى

البرتقال .. اين راح .. ؟؟

لا اعرف والله .. لا اعرف ..
سرقته .. انت سرقته ..
لا والله ..
قل اين البرتقال ..

وضربتنى بيدها .. مرة ثانيـــة بحذائها .. آلمنى الكعب .. قصـــير لكنه آلمنى .. مدبب .. وعلا صوتها.. وضربتنى مرة ثالثة على صـــدغى ..

واسرعت الى المطبخ .. وبدا لى حجمها كبيرا .. ضخما ..

سأحضر لك الذى يجعلك تنطق.. العصايا يا بنت .

تطلعت اختى من خلف الباب الى.. ودق قلبى .. سقط وعاء نحاسى .. فكسر زجاج فوق البـــلاط .. وزاد صريخها .. خفت .. استمرت تروح وتجىء .. مرت عربة .. مسرعة .. هذا هو الشارع الكبير . ترام بعربتين.

لونه اصفر . أهـــذه هى السنجة ؟؟ وأطفال على السلم .. أخاف . قفز طفل . واسرع بعبور الشارع .. وقالت امى وهى تهزنى هزا رقيقـــا .. لو ارسلتك تشترى شيئا احـــذر ركوب الترام .. واذا ركبت فاحـــرص على الجلوس فوق مقعد واقطع تذكرة .. قبلتنى فوق جبهتى .. وكنت اروح فى النوم ببطء .. وصوتها فى أذنى .. ياه نسيت طعم صـــوتها .. نسيته والله .. لازلت صغيرا يا ولدى لا تركب الترام .. انت أقصر من سـلمه .. اخاف العبور .. تمرق سيارات مسرعة كثيرة .. ومن الترام .. احدث ضجيجا مخيفا مزعجا .. وضربتنى .. يا رب ياكلك الترام .. يا رب خبرك يجىء لى بمجرد خروجك .. يا رب . ونظرت مستعطفا الى أختى .. تقف صامتة.. فكرت فى ان ارجوها .. فهى تحبهـا ولا ترفض لها طلبا .. تقول لهـــا يا ماما .. اما انا لم أقلها بصوت عال من سنوات .. يا نجوى أنا شقيقك.. شقيقك والله .. قولى لها لا تضربنى ولا تحضر لى العصا .. العصا تؤلم .. والله لم اسرق البرتقال .. ولم اذقه .. تحركت ناحيتهـــا .. وعضضت ياقة جلبابى .. فجأة .. اسرعت تجرى .. قفزت فوق السرير .. نظرت الى من فوقه .. ابتعد أنت تريد ان تقتلنى .. تكسر كوب آخر فى المطبخ وراح الكعب الثقيل وجـاء .. واصبح صـــوتها ضخما .. والله لاقطعن لحمه والله .. وتقلص وجـــه أختى .. صاحت مرة ثانية .. ابتعد .. وادركت اننى لازلت اقف مكانى .. فتراجعت .. وعيناى مشـــدودتان الى باب المطبخ .. قلت لا تغضبى يا أختى .. وبدأت تبكى .. وكررت لا تغضبى .. يا حبيبتى .. فقـالت انا لست حبيبتـــك . قلت لا تخافى .. لا تخـــافى .. ونظرت الى النافذة مغلقة .. فى عصر يوم مضى من سنة وار الصراخ فى الحارة .. نظروا من الشرفات .. على الارض كومة .. مغطاة بأوراق الجـــرائد قالت امراة بدينة .. مسكينة زوجها كان يضربها دائما .. ولو فعلت أنا .. سيطلون .. من ؟؟ ابن فلان .. مسكين كنا نسمع صراخه دائمـــا .. كانت تضربه .. تصورى الساعة الثانية بالليـــل نسمع صوتهـــا وهى تضربه .. مسكين الله يرحمه .. اربعة جرائد تكفى لتغطية جسمى .. ويجىء ابى .. من .. ابنى مات .. » ويصيح انها السبب ويطلع اليها ويبتعد عنه الجميع ويكسر باب المخزن .. ويدخل الى المطبخ ويمسك بالسكين ..

انت السبب ..

لا والله ..

انت السبب ..

لم اتحرك الى النافذة .. وتساقطت اوانى النحاس وراء بعضها .. ولم تعثر على العصا .. وتمنيت ان تأتى جارة لنا على صوت الضجة .. وتهدئها قليلا رأيت بجوار الباب قشرة برتقال .. لست ادرى متى احضره ابى .. انت سرقت البرتقال .. كدت اصـــدم برجـــل .. مشيت على الرصـــيف

والعربات كثيرة .. عربات الجاز .. والكارو .. والتاكسى .. والفاكهة .. والأوتوبيس .. والنـــاس أكثر من العربات مر اطفال صغار .. بينهـم بنت صغيرة .. حلوة لها ضـــفيرة صفراء .. ومر العيد الصـــغير اربع مرات .. والكبير .. وجـــاء رمضان وراح .. وفى الحارة اولاد .. لعبت معهم .. وقفت على بســـطة السلم وضعت يدها فوق كتفى .. انزل يابنى العب معاهم خد قرشين واذا فرقعت بالونة احضر غيرها .. وكل بالوظـــه وحـــلوى من الدكان .. من الدكان والمحها تطل من الشرفة .. اقف وسط الأولاد آخر حله لونها احمر ازرارها نحاسية صفراء .. أخـــاف ان انسى ملامح وجهها .. وقفت مستندا الى جدار قهوة وبكيت .. وامتـلأ حلقى بكتلة غليظة .. ونظـــر ناس الى ..

مسحت دموعى واصلت المشى .. وقال ابى غدا صباحا سنزور امك .. ولم أنم طوال الليل وحرصت الا أحـــدث صوتا يشـعرها انى مستيقظة .. فى الفجر قفزت الى الأرض .. وتسللت الى حيث يرقد ابى .. ابى .. ابى .. الديوك تصيح بلا انقطاع .. ومؤذن قريب وصوت قرآن .. وعواء كلب فى الحارة واصوات رجـــال هامسة .. خافتة .. غريبة وتقلب فى فراشه .. قال .. ماذا جرى ؟ ونظرت اليهـــا بجواره .. صدرها الضخم يعلو ويهبط بانتظام .. نائمة .. الن نذهب لنزور امى .. نزور امى .. طرف اللحاف منحسر عن جســمه ناحيتها .. فتح فمه .. وتحرك لسانه وقال الدنيا برد الدنيا برد ألم يكن صدرها يعلو ويهبط!؟ الم تكن ساكنة ؟؟ نهضت فجأة وصاحت يابنى اترك أبوك ينام الرجل عاد مرهقا من الخارج .. امشى يابنى امشى .. ونزلت من السرير .. واسرعت اجرى .. لحقتنى فى الصالة .. فمها يقول يابنى نم .. يابنى استرح ويدها تمتد الى كل جزء فى جسمى .. لم ابك .. وتناول ابى طعامه .. وكانت الساعة العاشرة .. جلست فى المطبخ .. شعرت به يومها بارد .. مخيف .. واســـع والمسكن كله .. وامامى تجلس امى .. الموقد امامها .. تقلى الباذنجان ـ واســـند رأسى الى ســـاقها .. وآكل قطـع الباذنجان البيضاء نيئة قبل ان تقليها فى الزيت وبكيت .. ونظرت الى باب الشقة .. لست لصا .. لم أسرق البرتقال .. ادخلت قدمى فى خـذائى

القديم اختى تقف على السرير وكفت عن البكاء .. فتحت الباب .. وأسرعت اهبط السلم .. وخلفى آلاف الأيدى والأنياب تمتد لتمسكنى .. الطريق فى حارتنا بارد هنا حـــار .. والشمس ساخنة .. واندفع بائع طماطم .. وابى يجلس على قهوة فى هـذا الشارع .. بجوار دكان صغير أبوابه مطلية باللون.. الأزرق .. يلعب الورق .. ويشرب الشاى .. لم اشك اليه أبدا .. لكنى اليوم ساكشف له جسمى .. واريه مكان الشمعة والسيخ .. والعصا .. وأسنانها .. آه .. توقفت ســـيارة اتوبيس كبيرة وعبر الطريق رجل له ساق واحـــدة .. ملابســـه ممزقة صفراء .. وشعره طـويل .. زحف

الرجل بالقرب منى وفوق كتفه طفلة صغيرة .. صغيرة جدا .. راسها كالليمونة .. ومد الرجل يده الى استاذ كالمدرس ولوح المدرس بشدة .. وتوارى الرجل عند ناصية الشارع .. انه مسكين .. هل يجد ما ياكله ؟؟ وكيف يحتمل الزحف هكذا بساق واحدة وبكيت .. ثم مسحت دموعى .. وعندما تلفت لأرى الرجل الذى يشبه المدرس لم أجده .. وعندما جاءت الى الشيخ قلت له .. انا امه يا سيدنا الشيخ .. أضربه لانه يفعل كذا .. وكذا .. وكذا .. واعطته سلة مليئة بالفول والخبز لم اقل له انها تكذب .. وعندما خرجت من الكتاب آخر النهار .. لم أعرف كيف أمشى على قدمى .. احسست بهما ضخمتين .. كل واحدة فى حجم كتلة عجين ثقيلة ملتهبة .. ومشيت خطوة ثم أخرى .. وجلست بجوار الجدار .. زحف صرصار ضخم بنى بالقرب منى .. وتخللت قدمى طوابير من النمل وكل نملة تقرصنى ومرت من أمامى امراة وتمنيت أن يرانى أبى .. لكنه لم يجىء وازدادت قدماى حجما وثقلا وكان هذا اليوم البعيد ساخنا .. اصفر .. يجعلنى أبكى .. حتى الشمس الصفراء تهبط خلف البيوت وضوءها يتراجع واستطعت ان أحملق فيها وتذكرت الفطائر الحمراء .. وبكيت .. وخيل لى ان وجه امى يختفى خلفها وبكيت .. واصبح اليوم الحار باردا مخيفا .. وخلت الشوارع من المارة .. وتذكرت يوم وقفت فيه مع الأولاد أمام عتبة منزلنا .. وقال ولد .. اذا أكلت شعرة من راسك فلا بد ان تموت .. واستفسرت الأصوات .. وسألت انا .. ورحنا نتطلع اليه .. وهو يتكلم وأفواهنا مفتوحة من الخوف .. وآلمنى ظهرى .. ورايت موقف الأوتوبيس .. نزعت خمس شعرات من راسى واكلتهم مرة واحدة .. بلعتهم .. وانتظرت ان اموت .. وزحف الليل بسرعة وفى ليلة قال أبى احذروا ابتلاع اظافركم ان هذا يميت .. وقضمت بأسنانى كل اظافر يدى وغطى اللون الأسود السماء كلها .. وراحت الفطيرة الحمراء وذابت آلاف الألواح الثلجية فى الهواء .. ولم امت .. مررت أمام صيدلية كثيرا ما جئت مع أبى اليها .. امسك بذيل جلبابه .. واقف بجواره .. يقدم ورقة الى رجل يرتدى نظارة بها سلك .. ويدفع لى ونعود بصناديق صغيرة عجيبة .. وحقن يبتلعها جسم امى .. بعد ذلك لم أجىء الى هنا ابدا .. وقفت ونظرت الى الداخل آه لو أرى الرجل ذو النظارة .. اين هو ؟؟ غير موجود .. أين ذهب؟؟ آه لو رايته سأساله اتذكرنى يا عم هل عندك حقن تعيد الميت ؟؟ وبحثت عنه فى الصيدلية .. ولم اجده .. وجاء أبى بعروسة وعربة .. وصاحت نجوى بفرحة واحتضنت العروسة هززتها .. وجلست بالقرب من باب دورة المياه .. أحاول الا انظر اليها حتى لا يقولا انى أحسدها .. بلعت لعابى .. ودخلا الحجرة .. وقال أبى كبرت على هذه الأشياء قم لتنم قم .. ظلت نجوى وحدها فى الصالة .. تنادى عروستها .. اقتربت منها .. نظرت الى ضمت عروستها الى صدرها ابتسمت .. قلت ..

هل تحبين ان أدير لك مفتاح العربة؟؟

ظلت صامتة .. نقلت العربة الى الناحية الأخرى .. قلت لا تخافى .. ساعلمك كيف تمشين .. فجأة .. بدأت تبكى ..

خرج .. وقف ينظر الى ورفع يده .. هوى بها فوق وجهى مرة .. وعنقى مرة .. صدرى مرة .. ضربنى ثلاث مرات لم ابك .. لم ابك امامه ابدا .. ولا امامها لو ارتفع صوتى

ستسمع امى وانا لا احب ازعاجها .. هكذا قالت جدتى عندما زرتها آخر مرة .. ولم تزرنا بعد ذلك ابدا .. ذهبت الى بلدتها فى آخر الصعيد .. وعندما تشتمنى الضخمة تقول يا بن الصعيدية الأولاد فى سنك يعملون ماسحى أحذية .. ولو اعرف الطريق الى بلدة امى .. لكنهم يقولون انها بعيدة يمشون اليها شهورا وشهورا ..

من القهوة خرج رجل كمسارى يلبس حلة صفراء .. قبر امى لا يحتاج الى ركوب سيارة .. خلف هذه البيوت .. فوق الرصيف .. يجلس رجال يلعبون .. البعض يضحك .. صوت مذياع .. اين ابى؟؟ آه .. يجلس مع .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. يلعبون الورق .. يشرب الشاى ويضحك .. ماذا ساقول له ؟؟

هربت من البيت لأنها ستقتلنى ؟؟ طردونى .. ضربتنى قالت لى انك سرقت البرتقال هل ترضى ان يقال عن ابنك انه لص يا ابى ؟؟ اكشف له ظهرى اريه .. الجروح .. لكن امام الناس ؟؟ ربما يضربنى .. هل أطلب من الجرسون ان يهمس فى اذنه .. هناك ولد يريدك عند الناصية ؟؟ وفى صباح ذلك اليوم جلست انتظره حتى يختلى بنفسه وعندما ابتعدت عنه قلت .. الم تعدنى بأنك ستذهب لزيارتها امس ؟؟ نظر الى عاد الى قراءة الصحيفة .. آه .. تقطع قلبى .. دارت أمعائى فى بطنى .. قال سنزورها فى يوم آخر .. خذ قرشا واذهب اشتر لك حاجة ..

لم يذكر لى الأمر بعد ذلك .. ابدا .. ابدا .. يده ترتفع وتهبط بورقة هل تهبط على وجهها كما هوت على وجهى؟؟

لو حدث هذا فستنتقم منى يضحك بصوت عالى ..

لم يضحك معى من مدة .. مدة .. مدة بعيدة ..

يتراجع بالكرسى الى الوراء ..

لم يقبلنى من زمن ..

يشرب شايا ..

يأكل دائما معها .. لم آكل معه ابدا من مدة ..

يضحك .. ويضحك ..

اهذا انت يا ابى ؟؟ كانك لم ترنى ابدا ...

وهل هذه اول مرة تراه يضحك فيها .. لا بل رأيته كثيرا لم يكف عن الضحك .. صحيح ضحك وضحك تراجعت الى الخلف .. بدات اشعر بكتلة صغيرة مؤلمة فى حلقى بندقة .. بكيت .. مررت بالصيدلية .. نظرت الى داخلها .. لم ار الرجل .. غير موجود مر حولى رجال ونساء .. وأولاد يلبسون اردية المدارس .. هيه هيه .. وبنات وعربات وكلاب .. ولم ينظر الى احد .. لن ابلع شعرى .. لن آكل اظافرى الشمس ساخنة .. لكنى مضيت خفت الضجة .. وتركت ورائى ميدان الأزهر وموقف العربات والطريق الذى يشق الجبل الى المدافن ..

سيعود من المقهى ..

قد يسأل وقد ينسى ولا يسأل الا غدا .. ستقول انها لم ترنى .. سارى امى مرة أخرى حتى لا انسى وجهها .. ستفرح لأنها لم تكن تطيق البعد عنى .. وامضى شهور .. شهور .. الى اين .. الى اين ؟؟؟